رحلة الى القاهرة

«١٣٤٩ هـ و ١٩٣١ م»[1]

اذا ركبت قطار السكة الحجازية في محطة القنوات بدمشق فانطلق بك صاخباً ينساب بين حدائق الغوطة الغناء تحت باسقات الادواح وبين قصيرات الجنبات وطويلات الأنجم وخلال مخضرات البقول على انواعها ، سيراً مع قني بردى وسواقيه التي لاتحصى ، وقد آذنت تباشير الربيع بتفتق البراعم والعيون عن افانين الزهر ومخضل الورق ، وبدت عن يمينك بلاس وداريا وغيرهما من القرى فذكرتك بقول الصنوبري :

ونعم الدار داريا ففيها ... صفالي العيش حتى صار أريا
ولي في باب جيرون ظباء ... اعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
صفت دنيا دمشق لمصطفيها ... فلست اريد غير دمشق دنيا

ثم طلع بك الجبل المانع وهو يلهث تعباً فاستقبلتك اللجاة بحرتها السوداء ، فطواها على عجل الى حوران حيث تذكر قول جرير في صفاتها :

هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتكم ... عند الصفاة التي شرقي حورانا
هل يرجعن ، وليس الدهر مرتجعاً ، ... عيش بها طال ما احلولى وما لانا

حتى اذا بلغ بك وادي اليرموك فانحدر فيه قلقاً حذراً يتئد في سيره ، وانت تذكر روعة التاريخ في وقعة ذلك الوادي الشهير ، وتمتع ناظريك بأزهاره الفتانة التي تنبتها الطبيعة على انواع واصناف لاتعد ، ثم استقبلك نهر الأردن وبدت امامك بحيرة طبريا فقف هنالك واذكر دمشق وقل مع اليزيدي :

(١) محاضرة القاها الأمير مصطفى الشهابي في ردهة المجمع العلمي العربي في ٦ تشرين الثاني «نوفمبر» سنة ١٩٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما ذا بقلبي من دوام الخفق اذا رأيت لمعان البرق
من قبل الأردن او دمشق لأن من اهوى بذاك الأفق
ذاك الذي يملك مني رقي ولست ابغي ماحييت عتقي

وتبدو لك بعد قليل بيوت بيسان واشجارها وهي تنظر من عل الى غور الأردن كأنها تدفع عنه صروف الدهر . ومن العجيب انك لاتشاهد حولها كرمًا مع ان خمورها كانت مضرب الأمثال فيمامضى . ولاازال اذكر البيت الذي قاله عبدالرحمن بن سيحان بن أرطاة في سبيئة بيسان اي خمرها وهو :

سبيئة من قرى بيروت صافية عذراء اوسبئت من ارض بيسان

وليس في مرج ابن عامر ما يلفت نظرك سوى كثرة الصهيونيين فيه ، وفي السهول التي تقطعها في اليوم الثاني الواقعة جنوبي حيفا الا طول كرم وقليلة ورملة ولد فانها حمت نفسها منهم ولا يزال يصح فيها قول كثير :

حموا منزل الأملاك من مرج راهط ورملة لد ان تباح سهولها

و كأني بك ذاكر قبيل الغروب وقد بلغ بك القطار غزة قول الامام الشافعي فيها :

واني لمشتاق الى ارض غزة وان خانني بعد التفرق كتماني
سقى الله ارضًا لو ظفرت بتربها كحلت به من شدة الشوق اجفاني

ومتى ارخى الليل سدوله رأيت القطار يضرب بمن فيه صحراء التيه دون ان يتيه ، لأن السكة امامه ممدودة تتلوى كالأرقط وهو كما قال حافظ : حديد ينساب فوق حديد ، فلا خوف في دخوله التيه ، ان يضل كما ضل قوم موسى او يجازف مجازفة المتنبي في قوله :

ضربت بها التيه ضرب القما ر اما لهذا واما لذا

واذا ماجزت قناة السويس في القنطرة وركبت قطار مصر فانطلق بك في دساكر القطر ومستغلاته ، فلا تطمع بان تمتع نظرك في الليل البهيم الا بمصابيح البلدان والمدن التي يمر بها القطار حثيثًا ، او يقف بها هنيهة وقفة القلق الذي لم يبلغ الغاية في سيره ، حتى اذا بدت لك مصابيح القاهرة المشرقة حق عليك ان تحيي مصر بصرخة شبيهة بالتي خرجت من فؤاد الشاعر الياس فياض :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سلام على مصر ولو عشت ادهراً لما كنت الا طول عمري مسلما
على موطن لو خير المرء موطناً من الارض لم يختر ابر واكرما
سرت في اهاليه عذوبة نيله وسال فما ان تعرف الماء منهما

ولاتعجبن بعد خروجك من المحطة ليلاً لوفرة الأنوار المتألقة في ساحتها ، وفي شارع الملكة نازلي الطويل البديع ، ولا لروعة تمثال نهضة مصر الذي يجب ان تحييه تحية من يعشق الحرية اينما كانت ، فكيف في عاصمة الفاطميين والأيوبيين ، ولالازدحام السيارات والعجلات وضخامة الابنية ، وكثرة المارة ، ونظافة ارض الشوارع المصقولة صقلاً ، فأنت في مدينة اوربية في عظمتها ، شرقية في روعتها ، وهذا المزيج هو مما يستخلك ويستهويك ، فلست في الاسكندرية ولا في بورسعيد حيث رطانات الاجانب بمختلف الألسن الأعجمية ، تجعلك تتمنى ان تُصم اذناك الى حين ، وحيث يظهر هؤلاء امامك بمظاهر تود معها لو كان لك عينا المعري ريثما تنسل من بينهم بسرعة الكهرباء .

انك اينما سرت في القاهرة تجد شوارع نظيفة واسعة ، وابنية كبيرة شاهقة ، وحدائق مزدانة باجمل اشجار البلاد الحارة ، وتجد ايضاً جوامع قديمة وحديثة ، وقصوراً مبنية على الطراز العربي تأخذ نقوشها وزخارفها وتطاريزها بمجامع القلوب . فحدائق الأزبكية والنباتات ، والقناطر الخيرية والحيوانات ، والأسماك والمعادي وغيرها وهي كثر ، ثم جوامع السلطان حسن والرفاعي وابن طولون وسيدنا الحسين والأزهر ومحمد علي وعشرات غيرها من آيات الفن المنبثة في انحاء المدينة كلها ، تحملك على الاعتقاد بأن القاهرة هي اروع مدينة لافي الشرق العربي وحده بل في الشرق الأدنى بلا جدال . واجمل من المدينة سكانها فأنك لاترتطم فيها بعدد كبير من صلفاء الأجانب ، بل الجمهور الذي تقع عليه عينك احد اثنين مصري اسمر بشوش مرح محتفظ بطربوشه القصير ، اي مصرية سمراء كحلاء هيفاء في الغالب لفاء في الأقل ، تختال في الحرير الأسود سافرة الوجه او مسبلة عليه نقاباً أرق من دين صاحب البيت الآتي في الخمرة وهو ابو نواس .

عتقت في الدن حتى هي في رقة ديني

نعم لقد رقت النقب على وجه السيدات المصريات حتى طار نصفها لدى نصفهن ، واوشك النصف الثاني ان يلحق بأخيه ، وصرت ترى السيدة المصرية تجلس بجانب الرجل في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مجالس الأدب ، وابهاء المحاضرات والحدائق والمسارح وغيرها دون ان يعد ذلك منها خروجاً على المألوف من العادات . وولدت المدنية الاوربية هذه الحال تدريجياً فالمرأة المصرية أسلم فيها عاقبة من المرأة التركية التي حملوها قسراً على أخبث ما في السفور من أمور مستقبحة . ومن المعروف ان القرويات في مصر كالقرويات في الشام لا يتخذن النقاب على أوجههن . وأنت اذا أردت شبهاً لصور المصريات في المتاحف وعلى الستائر ، بقدودهن الهيف ، وعيونهن السود التي يشبهونها بفلقة اللوزة ، وما أوجدته الطبيعة في الأهداب من كثافة وكحل ، وفي الحواجب من استقامة وقصر ، الى غير ذلك من الصفات التي تلفت نظرك في صور المرأة المصرية القديمة ، فانك واجد هذا الشبه في فتيات القرى المصرية لا فتيات المدن .

ومتى رحت تبحث في القاهرة عن كل ما يجب عليك ان تراه وتدرس بامعان كل ما يحتاج الى درس حق عليك ان تسلخ فيها اشهراً بل سنوات . ولو جشمت نفسك التأليف في ذلك لما خرجت بسفر بل بأسفار . وبعد فماذا تراني محدثك عما شاهدته فيها خلال أيام معدودات ، أأذكر دار الآثار المصرية ، وفيها تتجلى عظمة المصريين الأقدمين فيما خلفوه من هياكل وتماثيل ونصب مصنوعة من الحجر الصلد ، واثاث ورياش وحلي مذهبة ، قرأتم عنها فيما كتب عن توت عنخ آمون خاصة الى غير ذلك مما يجعل تلك الدار لا تقل في عظمتها وغناها عما شاهدناه في أكبر المتاحف الأوربية . أم أذكر دار الآثار العربية وهي ان لم تستثر دهشتك من حيث عظمة ما فيها من مخلفات الأجداد فتدلك بما تحويه من دقيق النقش والوشي والزخرف واعادت الى نفسك ذكرى روعة الممالك العربية في إبانها . أم أتحدث عن اهرام الجيزة وسقارة وابوصير وغيرها . او اكتفي بهرم خوفو الأكبر في الجيزة وهو من اقدم ما بنته يد الانسان ، رسا اصله على ٢٣٣ متراً من الأرض ، وعلا جرمه فوقها حتى بلغ ١٤٧ متراً . وهنالك يربض ابو الهول الجبار الذي هزأ بالدهر كالهرم ، وصارع احداثه مثله ، حتى ناجاه امير الشعراء بقوله :

ابا الهول طال عليك العصر وبلغت في الأرض اقصى العمر
فيا لدة الدهر لا الدهر شب ـ ولا أنت جاوزت حد الصغر

ومتى ذكر ابو الهول وجب ان يتصور الانسان اسداً رابضاً من حجر طوله ٥٧ متراً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعلوه ٢٠ متراً وله رأس آدمي تبلغ أذنه ١٦٣٧ متر ويبلغ فمه ٢٦٣٢ متر ولو وقف رجل على فرع أذنه ومد يده لما بلغت قمة رأسه . ام انتقل بك طفراً الى مصر الجديدة حيث ترى الآيات البينات في بناء المدن الحديثة ، من قصور شاهقة ، وشوارع نظيفة واسعة ، وحدائق هي بهجة للناظرين . ولو شاهدت اجمل الأحياء في المدن الأوربية لما تركت في نفسك اثراً يفوق الأثر الذي تطبعه فيها رؤية مصر الجديدة . ام اسير بك الى حي الزيتون والمطرية وواحة عين شمس فتتذكر هنالك قول امير الشعراء في قصيدته « المطرية تتكلم » .

لولا حلى زيتوني النضر ما اقسم بالزيتون ربّ العباد
الواحة الزهراء ذات الغنى تربي التي ما مثلها في البلاد
تريك بالصبح وجنح الدجى بدور حسن وشموس اتقاد

وبين الزيتون وواحة عين شمس ترى بيت الامام محمد عبده رحمه الله وقد اوشك يتداعى فتنقبض لذلك نفسك وتود لو ان الحكومة المصرية على غناها رممته وجعلته بيتاً من بيوت الأمة يحج اليه ابناء الشرق العربي كافةً . وكنت ادليت بهذا الرأي الى معالي وزير الزراعة حافظ حسن باشا فاستصوبه .

أم نصعد الى القلعة التي كان أمر ببنائها السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب على أحد منحدرات المقطم ، فنحظى بمنظر لا تقع العين على اجمل منه لبيوت القاهرة الجميلة ، وجوامعها البارزة ، ومآذنها الشاهقة ، وقبابها الكروية ، وجنانها الفردوسية ، ونيلها الهادي ، تنساب مياهه بجلال وعظمة . وهنالك ندخل قصر محمد علي الكبير فنتذكر أيامه الغر ، وايقاعه بظلام المماليك ، واستئصاله شأفتهم . وندخل الجامع الذي بناه ذلك الرجل العظيم ، وأتمه الخديوي سعيد باشا على طراز جامع نور عثمانية في فروق ، بقبته البيزنطية العظيمة ومآذنه الرشيقة العالية ، فنحيي فيه ضريح مؤسس النهضة الحديثة باحترام وخشوع . أم نمتطي السيارة فنطلقها شمالاً الى شبرا فالقناطر الخيرية حيث نشاهد ذلك السد العظيم الذي بدأ به محمد علي ، فأقامه في وجه النيل وأتمه بعده خلفاؤه ، وحيث تقع العين في الجزيرة التي ولدتها الترع على حديقة غناء من اجمل حدائق العالم تتسابق فيها بالجمال اشجار الفصيلة الصنوبرية ، وهن ملوك دوحة النبات واشجار الفصيلة النخلية وهن أمراؤها ، دع أنواع السنط والجميز ومختلف الأزهار . واعجب لأرض الحديقة كيف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اوجدوا فيهـا تلك المنعطفات والمنحدرات والتلال الصنعية وكيف زينوها بتزاويق الزهر وتعـاريجه . فاذا ما اضفت الى خضرة الحديقة وزرقة النيل حمرة وجوه الحسان المرحات فانت اذن في الجنة التي فضلها أمير الشعراء علي جنة الخلد عند ماهتف بسينيته المشهورة في الأندلس :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه بالخلد نفسي

أم نيم الجنوب في القطار الى حلوان بلدة عبـد العزيز بن مروان ، فنعيد الى الخاطر ما كان بنى الأمير فيها من دور وقصور وما زرع من بساتين وكروم ، ثم نزور حمامهـا الكبريتي الشهير فنرى بنـاء عربيًا ضخماً بنته الحكومة يحتوي على عشرات من الغرف والمقاصير النظيفة فيها مغاطس تملأ بالمياه الكبريتية أو الميـاه العادية وقاذفات للبخار أو للهواء الحار . وكأني أراك أمام هذه الوسائل الحديثة ذاكراً حالة حماماتنا الكبريتية في طبريا والحمة وضمير والسخنة وتدمر وغيرها ، وهي كما اوجدتها الطبيعة لم تعمل بها يد انسان ، ولم ينفق فيها دانق واحد .

أم ترانا نترك البلد الى حين فنفلت بضع ليالـ في شارع عماد الدين ، وما عهدنا عماد الدين الكاتب الذي جعله صلاح الدين في خاصته ، اخا لهو وطرب بل عهدناه على حد وصف الجاحظ لأمثاله « الف تفكير وتنقير ودراسة كتب وحلف تبيين » . ولو لم يكن كذلك لما الف «خريدة القصر وجريدة العصر» في عشر مجلدات ، والبرق الشامي وهو سبع مجلدات في التـاريخ ، وديوان شعر وديوان رسائل وغيرها . فاذا صحت نسبة الشارع المذكور اليه « ولست اعلم عماداً للدين غيره تصح فيه هذه النسبة » كان من عبث الدهر وهزله ان تجتمع انواع الملاهي في شارعه حتى صار يعرف بها وصارت تعرف به . فهنالك تشاهد يوسف وهبي اشهر ممثل انجبته مصر ومسرحه يعرف بالجد سواء من حيث التمثيل أم من حيث الآداب التي يشترط على المتفرجين ان يتحلوا بها . فانت لاتجد هنالك اخلافاً بالمواعيد أو قهقهة أومسامرة أوشرب ماء أو تدخين تبغ اثناء قيام الممثلين بعملهم . ومتى فرغ الممثلون من تمثيل احد الفصول جعلوا لك بينه وبين اخيه وقتاً تدخل فيـه بهواً واسعاً فتأكل وتشرب وتدخن وتطلق لسانك العنان . ويكاد يكون مسرح فاطمة رشدي متحلياً بالصفات المذكورة . وهو يمتاز بصاحبته التي تحلت برشاقة القد وجمال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصورة وجودة التمثيل ، فكانت أشهر ممثلات مصر على الاطلاق . ولقد أبدعت في رواية مجنون ليلى تلك الرواية التي تعد من فرائد شوقي شاعر العرب الأكبر ، كما أبدع رفيقها احمد علام . ولا شك ان التمثيل العربي في مصر لم يبلغ بعد مستوى التمثيل في دار الأوبرا الملكية حيث تمثل فرق اجنبية غالباً ، وهو لا يزال بعيداً عما شاهدناه من الروايات في اوربة . ولكن القصور على ما أرى ليس في غواة التمثيل المصريين ، ولا في مؤلفي الروايات التمثيلية بل في ضيق ذات يدهم جميعاً . فلو مدتهم الحكومة بالمال الكافي لبرهن كل منهم على انه اخو عبقر في عمله ، ولنهضوا بالتمثيل العربي الى المستوى الذي نتوق اليه .

وفي ذلك الشارع تسمع صوت عبدالوهاب يزينه تفنن صاحب الصوت بالغناء وانتقاؤه قصائد شوقي المتينة الحوك والجميلة المعنى ، ولو أعطيت ام كلثوم صناعة عبد الوهاب ثم لو انتقت على الأقل قصائدها الغزلية من نظم فحول الشعراء المتقدمين أو المتأخرين لبلغت سدرة المنتهى ، ولتضاعف تأثير صوتها العذب الذي ما حاكاه صوت رجل أو امرأة في البلاد العربية على ما نعلم . ولا شك أن لحوك القصائد ومعانيها تأثيراً كبيراً في نفس المستمعين فشتان من حيث السبك والمعنى ما بين قولك :

متى يا جميل المحيا أرى ... رضاك ويذهب عنا الغضب
واني محب كما قد عهدت ... ولكن حبك شيء عجب

وبين قول الثاني :

ليلى تردد في سمعي وفي خلدي ... كما تردد في الأبك الأغاريد
اغير ليلاي نادوا ام بها هتفوا ... فداء ليلى الليالي الخرد الغيد

والقصيدتان أصبحتا أشهر من نار على علم ، الاولى تنشدها ام كلثوم والثانية عبدالوهاب . واما من حيث الفن فلا يزال ينقصنا الشيء الكثير من التنويع والتشكيل والمفاجآت فقد مللنا من الانغام المحزنة وما فيها من نواح وعويل . ولست اقصد بذلك تقليد الفرنجة بانغام باردة كالتي اخذ بعضهم يلحنونها في هذه الأيام ليست بشرقية ولا غربية وهي جديرة بثقب طبلة الأذن قبحاً وسماجة . وبعد هذا ماذا تراك ملاقياً في شارع عماد الدين ؟ انك ملاق فيه ممثلين للروايات الهزلية ودوراً للروايات السينمية وفرقاً للرقص والخلاعة مما يجعل عماد الدين الكاتب رحمه الله يتمنى لو كان سمي بأي اسم آخر او لو انصفه الذين احبوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تخليد اسمه تخلدوه في غير هذا الشارع .

ولنعد بعد هذه الجولات الليلية الى حياة الجد في النهار ، ولنزر على عجل ما يتاح لنا زيارته ركضاً في ايامنا المعدودات . ولنبدأ بدار الكتب المصرية فهنالك يلقاك مديرها العالم اسعد بك برادة بوجهه البشوش ويعرفك ببعض مساعديه ، وكل منهم استاذ فاضل بحاث عن الكتب ، نقار خلال سطورها ، يدرك منها بالعين المجردة مالا يراه غيره بالمجهر . ولله ماحوته تلك الدار من نفائس الرقوق والمصاحف القديمة وغالي المخطوطات والكتب فانها ثروة في البلاد اي ثروة ، واعجب لجهود الذين يطبعون الكتب الادبية في مطابعة تلك الدار فيخرجونها في تلك الحلل القشيبة التي اكتسى بها كتاب الأغاني وكتاب الأصنام وديوان مهيار الديلمي وعيون الأخبار للدينوري ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري وأشباهها .

وهل يجوز ان نعود من مصر دون ان نزور رجال الأدب والصحافة فيها ولا سيما الشاميين منهم وهم في ذلك البلد قوة يحسب لها الف حساب . خدموا اللغة العربية بجهودهم وأناروا الأذهان بمنتوجات عقولهم ، ومابرحوا الى اليوم قابضين على أهم الصحف اما مالكين لها أو كتاباً فيها[1] . وبأي يجب ان نبدأ ، وأي صحيفة أحق بالاكبار من المقتطف شيخة مجلاتنا العلمية ورأسهن ، وأي ذكرى في عالم الصحافة العربية أحق بالتخليد من ذكرى العلامة الفقيد الدكتور يعقوب صروف وهو من لم يجاره احد قبل مماته ولا بعده بسلاسة لغته العلمية وصحتها ، وسلسلة الأبحاث فيها ، حتى أصبح جميع الكتاب الذين يقام لقولهم وزن يجزمون بان العلوم الطبيعية خاصة لم تكتب بقلم أصلح من قلم الدكتور يعقوب . ولئن حالت الأقدار دون رؤية الفقيد فقد متعتك بخليفته فؤاد صروف وهو يبدو لك شاباً في ززانة الشيوخ وحنكة أصحاب السياسة والادارة ، ليس له بساطة العلماء واسترسالهم في الأحاديث ، وان كان منهم بل تراه يزن كلامه كما يزن بعينيه مخاطبه . وقد دل حتى اليوم على انه جدير بأن يقوم بحمل المقتطف الثقيل خير قيام .

ونجد في تلك الدار دار المقتطف والمقطم ذلك الشيخ الجليل والسياسي الاقتصادي

(١) من البديهي اننا لم نتعرض للمذهب السياسي الذي دان به كلُّ رجل من رجال الادب والصحافة الذين تناولناهم في بحثنا هذا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المحنك الدكتور فارس نمر الذي له علينا حق المواطن على ابن بلدته (حاصبيا) وحق الصحافي القديم الذي مابرحت صحيفته تسير على وتيرة واحدة منذ نصف قرن تقريباً . وهنالك ايضاً خليل ثابت بك رئيس تحرير المقطم ولولبها الذي يسيرها بحكمته المعروفة على الخطة التي رسمت لها .

واذا ماانتقلنا الى دار « الاهرام » وهي أقدم الصحف اليومية الحاضرة ، دهشنا لعظمة ذلك البناء ، وظننا نفسنا في احدى دور الصحف الاوربية الكبرى . وهنالك وجدنا شخصيتين بارزتين مشهورتين في عالم الادب والصحافة اولاهما شخصية الاستاذ داود بركات رئيس تحرير « الاهرام » بل قلبها الخفاق ومسر الحياة فيها ، وهو يشجيك بدهائه وفرط ذكائه ووفرة نكاته التي يأخذ بعضها برقاب بعض . ولم اجد اقدر منه على القيام باعمال مختلفة في آن واحد . فقد كان في مكتبه يقص علينا من نكاته العذبة ، وينظر في قصيدة بعث بها احد الشعراء ، ويصحح عدة اخبار قبل نشرها ، ويتلقى وصفاً لأحدى الحفلات ، كل ذلك في آن واحد وبسرعة البرق ، وبدون ان يمل احد او يهضم حق احد ، حتى قلت لنفسي اذا كانت قوة المرء على تدوير دولاب الأعمال الصحافية تقاس بعدد الأحصنة فأن ماقي دماغ الاستاذ بركات من قوة يساوي الف حصان على الأقل ...

أما الشخصية الثانية في «الاهرام» فهي شخصية الكاتب الفذ والوطني الصادق الوطنية الأستاذ اسعد داغر وقد وجدناه على ماعرفناه منذ اثنتي عشرة سنة في دمشق لم يبدل ادنى شيء في مبدأه ومشربه . وأما دار « الهلال » فلم تعد داراً لمجلة الهلال وحدها كما تركها المؤرخ الشهير الذي خدم قراء العربية اجل خدمة المرحوم جرجي زيدان صاحب تاريخ التمدن الاسلامي وتاريخ آداب اللغة العربية وتاريخ العرب قبل الاسلام وروايات زيدان التاريخية الخ بل قام ابناؤه الأفذاذ من بعده بعمل كبير فأصدروا مجلات « المصور » و« كل شيء » و « الحياة المصورة » و « الفكاهة » بالعربية وليزيماج (Les images) بالفرنسية حتى صرنا نجد في تلك المجلات رسوماً جميلة للحوادث السياسية والاجتماعية وللكائنات الغريبة مما لا عهد لقراء العربية به من قبل . وقد فقدت الهلال بعد مؤسسها مادتها التاريخية لكنها اعتاضت بها مقالات أدبية لعدد من ادباء اليوم كما ازدادت رونقاً وبهاء بما ذكرنا فصارت مجلة طبقة من الشعب اكثر عدداً من التي كانت تقرأوها فيما مضى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك انه اذا شدا المرء شيئاً من مبـاديء العلوم في مدارس التجهيز ودور المعلمين والمدارس الأهلية والأجنبية لذت له قراءة مجلات دار الهلال واستفاد مما فيهـا من معلومات ومتع نظره بصورها وتفكه بمـا حوته من نكات مستملحة واحاديث لذيذة . أما اذا حملته على قراءة المقتطف بما فيها من مواد علمية جافة فسرعان ما يمل منها لأن تلك المجلة ليست لمثله بل هي لمن زادت معارفهم على معارفه . ولما كان عدد خريجي مدارس التجهيز وخريجي المدارس العاليـة محدوداً اذا قيس بسواد المتعلمين كان قراء مجلات دار الهلال اكبر عدداً من قراء المقتطف . وانت ترى ان كلاً من مجموعة دار الهلال ومجلة المقتطف ضرورية لقرائها .

ومن الشاميين الأحامس الأستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة «الشورى» المعروفة ببلائها في سبيل القضية العربيـة ومن الأدباء الذين يعمل واحدهم عمل الجماعة صديقنا الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلتي « الزهراء » و « الفتح » الذي صحح وطبع «ادب الكاتب» لابن قتيبة و « البيان والتبيين » للجاحظ و «خزانة الأدب» للبغدادي . وقد بدأ اخيراً بمعجم لسان العرب فطبع جزءه الأول وهو مثابر على تنقيح اجزائه السائرة وطبعها . وله على الاشتغال باللغة وآدابها همة لا تجاريها الا همة الجبابرة .

ومنهم شاعر دمشق الاكبر خير الدين الزركلي صاحب قاموس الأعلام في تراجم اشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين في الجاهليـة والاسلام والعصر الحاضر وهو سفر ثمين في ثلاثة اجزاء . ومن الغريب ان عيني لم تكد تقع على عينه حتى تذكرت قصيدته التي يحن بها الى الشام حنين الثكلى الموجع الى فقيدها تلك القصيدة التي بكيت عند ما تلوتها منذ بضع سنوات ومطلعها :

العين بعـد فراقها الوطنا لا ساكناً ألفت ولا سكنا

وهو يختمها بقوله :

ان الغريب معذب ابداً ان حل لم ينعم وان ظعنا
لو مثلوا لي موطني وثنا لهممت أعبد ذلك الوثنا

رده الله الى دمشق ليسمعنا صداحه الفتان في بردى والربوة والنيربين ودمر وجيرون والغوطة فكلها له مشتاقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الذين لهم شخصيتان بارزتان الأولى علمية والثانية سياسية العلامة الدكتور شهبندر فقد ألفيت جميع العلماء المصريين والشاميين يحترمون فيه غزارة المادة العلمية ولا اظن احداً غيره جمع هاتين الشخصيتين فجلى بهما الا العلامة الأمير شكيب ارسلان وهو الذي لا يضاهيه احد بين كتاب العربية بكثرة منتوجات قلمه ، حتى ان الانسان ليحار كيف يجد الأمير متسعاً من الوقت لكل ما تخطه انامله ، ويسيل به دماغه على القراطيس .

اما الآنسة التي اختارت لنفسها اسم «مي» (ولله ما أعذبه اسماً) فهي كبيرة أديبات العربية في يومنا هذا بلامنازع . زرتها مع صديقي العلامة امين باشا المعلوف صاحب معجم الحيوان بعدان تلطفت واجتمعت بي مع رهط من العلماء والادباء في فندق « كونتننتال» فاذا بي في دارها كأني في هيكل الأدب الأسمى وقدس النبوغ والعبقرية . واذا باحاديثها تنم على أدق ماتلمسه مشاعر الانسان وقد خيل لي انني في حضرة احدى سيدات الملأ الاعلى اللواتي كنت أقرأ عنهن في كتب كبار الأدباء الفرنسيين . وماكدنا نودعها ونخرج حتى ابتدرني الصديق الأمين قائلاً : «انها شخيفة» فقلت صدقت ياباشا وماذا أخافك منها قال حدة ذكائها ووفرة معلوماتها الأدبية ، قلت اما انا ففرط احساسها لدقائق الحديث حتى كدت أرى نفسي غير قادر على مجاراتها فيه .

ومن الكتاب الشاميين الذين يكتبون في الصحف المصرية الاستاذ سامي السراج والاستاذ توفيق اليازجي وهما من فحول الكتاب الصحفيين ولهم في الجرائد المصرية تأثير أي تأثير ومنهم الكاتب نجيب شاهين والكاتب حنا خباز وكلاهما مجيد وقد اشتهر الدكتور شخاشيري بما يكتبه في المقتطف من الفصول الطبية الطلية . كما اشتهر الاستاذ نسيم صيبعة بمقالاته السياسية والاقتصادية عن الشام . ولم أر من يعالج قضية البلاد بمثل قلمه وخبرته وحفظه للوقائع والحوادث .

وهناك ترى خليل مطران شاعر القطرين بل شاعر الحياة والحقيقة والخيال معاً الذي قال فيه أخي الشهيد عارف الشهابي في تذكرته منذ ٢٤ سنة « نعم ان شعره شعر المستقبل الذي ستزدهر فيه آداب اللغة العربية . ولقد كسر الشاعر قيود التكلف وهدم صروح التقليد واندفع بعامل الشعور والاحساس فهتف بماهتف وكان هتافه شعراً . ولو لم يكن من فضائل ديوان الخليل سوى خلوه من الهجو والمديح (عدا قصيدتاً وقصيدتين) لكفى» انتهى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه صورة صغيرة للصحافة الشامية في مصر لمن حظينا بمشاهدتهم من ارباب الاقلام الشاميين فيها . ولكثير ممن لم نسعد بالتعرف بهم فضل كبير كالعلامة الجليل صاحب المنار والاستاذ اسكندر مكاريوس صاحب اللطائف المصورة وهي منتشرة في الشام والأستاذ المعروف اسعد خليل داغر والكاتب الفذ نقولا الحداد والاستاذ يوسف اليان سركيس صاحب معجم المطبوعات العربية والعصرية وغيرهم . اما الصحافة المصرية فيهيات ان نتمكن في ايامنا المعدودة من ابداء رأي فيها وفي رجالها الافذاذ . وكيف وقد صار لدى اخواننا المصريين جرائد ومجلات لا تقل قيمتها عن قيمة امثالها في الغرب وذلك بغزارة مادتها وتنوع حوادثها واخصاء كتابها بمختلف الموضوعات ووفرة النسخ التي تطبعها، مثالها جريدة السياسة والسياسة الاسبوعية والبلاغ والبلاغ الاسبوعي والجهاد والفلاح والضياء والكوكب وغيرها وهي كثر . وصار يكتب فيها ادباء وكتاب ذاع صيتهم واستفاضت شهرتهم امثال العقاد والمازني وهيكل وعوض وذياب ولطفي جمعة وعبدالرازق ومنصور فهمي وعنان وغيرهم . وقد كنت اتمنى ان اجتمع خاصةً بالعقاد الشاعر الرقيق والأديب الكبير والوطني الصادق الوطنية فاذكره بقوله :

يا نديم الخلوات اقبل الليل فهات

فاذا به في خلوة ما كان ليرقبها ولا ليتمناها له احد في العالم العربي . واذا به سجين في قضية سياسية وكأني به في محبسه يردد قوله :

ايه يادهر هات ماشيئت وانظر عزمات الرجال كيف تكون
ما تعسفت في بلائك الا هان بالصبر منه ما لا يهون

ولقد ذكرني سجنه بابياته البديعة في هذا الكون الأحمق :

ياشمس ما ضرك لو لم تشرقي ياروض ماضرك لو لم تعبق
ياقلب ماضرك لو لم تخفق سيان في هذا الوجود الأحمق
من كان مخلوقاً ومن لم يخلق

وهل يجوز ان نعود الى الشام قبل ان نزور الجامعة المصرية ونشاهد أبنيتها وحدائقها الجميلة في الجيزة وهنالك يلقانا من اساتذتها المعلمان الشهيران احمد امين وعبدالوهاب عزام ويجمعانا في اليوم الثاني برهط من الرجال الافاضل الذين تتألف منهم لجنة التأليف والترجمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والنشر فاذا بكل منهم عالم أخصائي في فرع من العلوم واذا بهم يبسطون لنا على منصة كبيرة نحو اربعين كتاباً عربياً ألفوها أو صححوها وطبعوها طبعاً غاية في الدقة والنفاسة ·

و كيف نغادر القطر قبل ان نجتمع ببعض العلماء المصريين الذين تربطنا بهم رابطة العمل في موضوعات متقاربة والفضل في تعريفنا بهم يعود للصديقين الكريمين امين باشا المعلوف والدكتور عبد الرحمن شهبندر فقد مهدا لنا السبيل لرؤية العلامة المحقق الدكتور احمد عيسى صاحب معجم اسماء النبات و كتاب التهذيب في أصول التعريب و كتب ورسالات شتى في ابحاث طبية خاصة · والعالم المجد الذي يناقرني من حين الى آخر وأناقره الدكتور محمد شرف صاحب معجم العلوم الطبية والطبيعية وهو أول معجم كبير في بابه يستحق المؤلف على ابرازه للعالم العربي كل ثناء · والدكتور الأديب النمث الأخلاق احمد زكي ابو شادي الذي نقرأ اشعاره وابحاثه في ديوانه وفي المقتطف والذي اجاد في ترجمة «العاصفة» خاصة وهو من غواة احد فنوننا الزراعية اي تربية النحل وله فيه كتاب ومجلة وله اليه دعوة ونداء · والشيخ الجليل العلامة احمد زكي باشا صاحب دار العروبة (وحق على كل عربي يدخل مصر ان يزورها) الذي له على اللغة العربية وآدابها اكرم يد بما جمع ورسم من شتيت مخطوطاتها وصحح وطبع من غالي دررها القديمة · وهو ما فتيء منذ عشرات من السنين يناضل عنها وعن ابنائها بقلم العالم الناضح ·

وممن اجتمعنا بهم المحامي القدير والقانوني الكبير محمد علي باشا وزير الاوقاف السابق الذي له على العالم العربي يد المدافع عن البراق مدافعة البطل الغيور وله الرأي الصائب في ايجاد معلمة (موسوعة) يتوفر عليها علماء الشرق العربي كافة · ومنهم الأديب المعروف السيد علي عبد الرازق صاحب كتاب « الاسلام وأصول الحكم » وهو الكتاب الذي ترك في العالم الاسلامي دوياً لأن صاحبه توخى فيه اثبات أن لا خلافة في الدين الاسلامي · ومنهم الأديب العراقي الكبير الشيخ كاظم الدجيلي وكذا الدكتور احمد قدري قنصل العراق العام في مصر وكان رفيقنا في باريز ايام الدراسة و كنا نسميه قنصل العرب لما كان له من العطف على جميع التلامذة العرب · ومنهم طلعت باشا حرب مدير بنك مصر ومؤسس نهضة مصر الاقتصادية وهو الرجل الكبير الذي قرن العلم الى العمل فأوجد للمصريين قوة كبيرة من المال المشترك كان الأجانب يمصون ثروة البلاد بمثلها · واذا شئت ان تعلم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مبلغ ثقة المصريين بهذا المصرف وببطله الذي صار بعد من رجال التاريخ الحاضر فسله عن مقدار الأمانات اي الودائع التي سلمه الأهلون اياها ينبئك انها كانت دون الثمانين من آلاف الجنيهات في السنة الأولى من تأسيس المصرف اما اليوم فانها بلغت تسعة ملايين من تلك الجنيهات وهو مبلغ كبير . وقد تمكن المصرف من تأسيس شركات وطنية مهمة لحلج الأقطان والغزل والنسج والنقل والملاحة وصيد الأسماك والطباعة وغيرها وأسس فروعاً له في انحاء القطر المصري وفي بيروت ودمشق ، وبنى داراً بديعة للتمثيل العربي في حديقة الأزبكية ، كما بنى لنفسه بناء في شارع عماد الدين جاء آية من آيات الفن . واذا شئت أن تعرف كيف توصف القصور وزخارفها فاقرأ وصف هذا البناء الرائع بقلم الاديب الكبير الشيخ عبد العزيز البشري في عدد ٦ حزيران « يونيو » سنة ١٩٢٧ من جريدة السياسة الغراء .

وحق علينا ونحن ما برحنا منذ عشرين سنة نعالج الشؤون الزراعية والاقتصادية ان لا نعود الى دمشق قبل ان نزور المعرض الزراعي الصناعي الذي أقيم في السنة الحاضرة في أرض الجمعية الزراعية الملكية في الجزيرة وقبل ان نلقي نظرة على مدرسة الزراعة العليا في الجيزة وعلى مؤسسات وزارة الزراعة المهمة . ولقد تممت لبلوغ هذه الغاية معالي وزير الزراعة حافظ حسن باشا فاذا استقباله لي يدل على وفرة أدبه وشدة عطفه واذا به ممن زاروا الشام في الأيام الخالية ، ومن النادر ان يزورها مصري كريم دون ان تترك في نفسه اثراً جميلاً .

وتقدم الوزير المشار اليه الى السيد حلمي احد مفتشي الوزارة بان يكون دليلنا غير مكره فكان مثالاً للرجل الوديع من جهة وللمهندس الزراعي الخبير ببلاده من جهة ثانية فاما المعرض الزراعي الصناعي فقد تجلت فيه جهود المصريين حكومة وشعباً في سبيل الانتاج الزراعي والصناعي فكان اجمل صورة لذلك الشعب الشيخ الفتى والنائم المستيقظ فهنالك اجود مجموعة للأقطان في دار الجمعية الملكية الزراعية ، وهنالك مصنوعات ادارة السجون من مفروشات ومناشف ومنسوجات حريرية وصابون وسجاد واحذية وكراسي ومماسح الخ كلها متقنة الصنع ، ومصنوعات المدارس الصناعية في انحاء القطر من نسج حريرية وآلات زراعية وأثاث ورياش ، ومنتوجات المدارس الزراعية ومعروضات أقسام وزارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الزراعة كقسم الحشرات وقسم النباتات وقسم الأقطان وقسم البساتين وغيرها . وهنالك اجود محاصيل القطر الزراعية على انواعهـا من حبوب وفواكه وخضر ونباتات صناعية وهنـالك ايضاً مصنوعات الشركات التي أسسها بنك مصر والغرف المختصة بمديرية الصحة والاسعاف وهي جديرة بأن تسمى مدرسة لحفظ الصحة . واذا اضفنا الى ذلك معروضات معامل الجلود والتبغ والصناعات الصغيرة المختلفة نكون قد ايجزنا في كلمتين ما احتجنا في زيارته الى اربعة ايام وما نحتاج في درسه الى شهر على الأقل وليس الخبر كالمعاينة .

ومما لا شك فيه ان اخواننـا المصريين لم يلحقوا الشاميين بالصناعات الوطنية الحديثة وليس لديهم اليوم امثال ما لدينا من معامل الدباغة والجوخ و « الكريب » وسائر النسج الحريرية و « التريكو » والجوارب وقمصان الكتان ومراويله وانواع الحلويات وعود الكبريت والسمنت وغيرها مما لا أثر فيه لرؤوس المال الأجنبية لكنه ليس ثمة ما يمنعهم من اللحاق بنا ومن تخطينا بمراحل . ولا شك ان السبّاق في هذا المضمار سيكون بنك مصر بعامله . ومن البديهي ان مصر كالشام لايمكن ان يكون فيها صناعات كبيرة خلوها من الفحم الحجري والحديد لكن في وسعها ان تنسج كل ما يلزم لسكانها من الألبسة القديمة والحديثة وان تصنع كل ما قلنا انه يصنع اليوم في الشام فنستغني عن دفع ملايين من الجنيهات سنوياً الى البلاد الأجنبية .

وأما مدرسة الجيزة الزراعية العليا فهي لا تقل بمخابرها ومعداتها ووسائل التعليم فيها عما خبرناه في المدارس الأوربية الشبيهة بها . ومن بواعث السرور ان جميع الدروس تلقى فيها باللغة العربية دون غيرها . وكذا في مدارس الزراعة المتوسطة الواقعة في مشتهر والمنيا ومنهور وفي مدارس التجهيز كافة . وقد اخذت العربية تحل محل الانكليزية والفرنسية في سائر المدارس العليا كالطب والحقوق والهندسة وغيرها .

* * *

وبعد هذه صورة جد صغيرة لما شاهدته في رحلتي القصيرة الى القاهرة . ونحن اذا رحنا نلخصها في بضعة اسطر حصلنا على النتيجة الآتية وهي ان تلك المدينـة الرائعة اصبحت اليوم رأس مدن الشرق العربي بعمرانها وبروعة آثارها الشرقية وان فيها نهضة علمية تتجلى في جماعة المجمع المصري للثقافة العلمية وفي عديد من الأخصائيين بمختلف العلوم ، ونهضة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أدبية واسعة النطاق تسطع في جماعة دار الكتب المصرية ورجال لجنة التأليف والترجمة ونوابغ الشعراء وفحول الادباء من أساتذة ومؤلفين ، ونهضة وطنية وسياسية لم نتعرض لها ولكنكم تلمسونها كل يوم فيما تقرأونه في الصحف المصرية ، ونهضة صحافية كبيرة لاعهد لمصر بمثلها من قبل وهي قائمة بجهود عدد لا يستهان به من حملة الأقلام المصريين والشاميين ، ونهضة مالية واقتصادية لها في حياة القطر المصري الشأن الاكبر ومبعثها بنك مصر خاصة . فاذا اضفتم الى ذلك ان القاهرة عاصمة بلاد غنية يبلغ عدد سكانها ٥ اليونًا من الناطقين بالضاد ادركتم الأسباب التي تجعل مصر زعيمة الشرق العربي بلا منازع .

مصطفى الشهابي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net